ظافر الحـداد

شاعر من شعـراء الاسكندرية فى أواخر العصر الفاطمى . وقـد أخرجت الاسكندرية فى هذا العصر مجموعة طريفة من الشعراء ، وترجم العماد الأصبهانى فى كتابه «الخريدة» لكثير منهم مثل ابن قيصر وعبد الحميد بن حميد وابن سلمان القرشى وخالد بن سنان وأبى عبد الله بن الخمشى واللبيب واصف الملك وأخيه النجيب العلم عبد الله وأبى الربيع سليمان بن الفياض والشريف أبى الحسن الحسنى ومثل عبد المحسن وكان كثير الهجو بذىء اللسان ، وابن مجبر وقدذهب شعره فى الألغاز والأحاجى ، وابن معبد القرشى وكان حسن التصرف فى النظم والنثر ، وابن مكنسة وكان فكها حلو النادرة . وبجانب هؤلاء الشعراء نجد شاعرة تشتهر فى هـذا العصر وتخرجها الاسكندرية وهى تقيـة الصورية .

وهذا الحفل الحافل من الشعراء ومعهم تقيـة يدل أبلغ الدلالة على ما كان بالاسكندرية من نشاط فى الشعر هذا العصر ، وكأنها كانت تريد أن تزاحم القاهرة فى هذا الفن . ولم تـكن الاسكندرية وحدها التى تزاحم القاهرة فقد كانت هناك مراكز مختلفة للشعر صورها العماد فى خريدته ، وكان بعضها فى الدلتا وبعضها فى الصعيد من مثل دمياط وتنيس فى أقصى الشمال ، ومن مثل إسنا وجرجا وقوص وأسوان فى الجنوب ؛ فـكل هـذه البلدان كان لها شعراء مميزون حينئذ ، وهم فى حاجة إلى من يصفهم ويصف ما كان ببلادهم من حركات أدبية .

كانت مصر إذن تزخر بالشعر والشعراء فى العصر الفاطمى ؛ ففى كل بلدة كبيرة نجد شعرا وشعراء . ولعل من الطريف أن نذكر ما لاحظه العماد فى خريدته من أن أكثر هؤلاء الشعراء لم يكن يخضع فى صنع شعره لمذهب البديع والتصنيع الذى شاع فى المشرق .

على أننا لا نقف عند هذه الملاحظة العامة التى لاحظها العماد ، بل نحن نتبعها بملاحظة أبعد من ذلك ، وهى أن المصريين لم يصنعوا ذلك عن غير عمد بل صنعوه عامدين ؛ إذكانوا يرون من الواجب أن يكون لهم إطارهم الفنى الذى يعبر عنهم والذى يعيشون فيه غير مسخرين للمشرق وتقاليده .

وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن مصر فى العصر الفاطمى كانت تتحلل عامدة من كثير من الرسوم والمصطلحات الفنية التى وضعها المشرق وأصحابه للشعر العربى ، وكأنها كانت تريد أن تثبت شخصيتها فى هذا الشعر وأن لها وجهة فنية قد اختارتها لنفسها وعوّلت عليها فى صنع نماذجها وآثارها الأدبية .

ونحن لا نعجب أن تحاول مصر حينئذ أن تكون متميزة الشخصية ؛ فقد كانت تستقل سياسيا عن بغداد وكانت تستقل أيضا عن الخلافة العباسية . ومعنى ذلك أنها كانت تستقل عن النظام السياسى الذى ساد فى المشرق ، ولعلها أرادت أن تستقل أيضا عن النظام الفنى الذى عرف هناك والذى كان يقوم على الاسراف فى استخدام ألوان البديع ، فان تركته فالى ضروب من التصنع والتعقيد لا تعبر عن جمال فى الفن إلا إذا جعلنا التعقيد والتصنع من حيث هما مظهرين من مظاهر الجمال الفنى .

وأنت لا تجد بين شعراء الخريدة شاعرا يعنى بهذه الجوانب فى شعره إلا أن يكون وافدا على مصر طارئا عليها من الخارج . ولعل من خير من يمثل ذلك أبا الحسن بن الشخباء العسقلانى ، فقد كان يعنى بالبديع فى شعره كما كان يعنى بشئ من التعقيد ، ولكن أبا الحسن ليس مصريا إنما هو وافد على مصر .

لم تكن مصر تعجب بالبديع فى صنع نمازجها الفنية أثناء العصر الفاطمى. وليس معنى ذلك أنها نفته تماما بل معناه أنها لم تستعمله إلا فى خفة ، إذ كانت مشغولة بنفسها تريد أن يكون لها شخصيتها التى لا تخضع لتقليد المشرق ولا تتعبد طرقه ونماذجه .

وربما كان من أهم الشعراء الذين يعبرون لنا تعبيرا واضحا عن هذا الجانب عند شعراء العصر الفاطمى ظافر الحداد ، وقد نشأ نشأة متواضعة ؛ فقد كان حدادا فى الاسكندرية ، وتصادف أن كان هناك وال للفاطميين يسمى

ابن ظفر ، فضاق خاتم فى يده عن خنصره فأحضروا له ظافرا ليبرده له ، وكان ينظم الشعر ، فلما مثل بين يديه أنشد :

قصّر فى أوصافك العالم ... فاعترف الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

وكان فى حجر الأمير غزال مستأنس . فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر فى هذا الغزال المستأنس ، فقال على البديهة :

عجبت لجرأة هذا الغزال ... وأمر تخطّى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما ... فكيف اطمأنّ وأنت الأسد

وكانت هناك شبكة مسدولة على الدار ، فقال الممتحن لظافر : انظم فى هذه الشكة شيئا . فقال توًّا :

رأيت ببابك هذا المنيف ... شباكا فأدركنى بعض شك
وفكرت فيما جرى لى فقلت ... مكان البحار يكون الشبك

وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار ظافر ، فقربه والى الاسكندرية منه ، وحمله معه — على ما يظهر — إلى سيده فى مصر ، فمدحه ظافر مدائح طريفة لم يثبتها العماد لأنه كان أيوبيا وكان الأيوبيون يكرهون كل ما هو فاطمى فضاع من أيدينا شعر كثير بديع مما أحدثه الشعراء المصريون فى مدح الخلفاء الفاطميين ومدح أمرائهم ووزرائهم . ولكن إذا كانت قد ضاعت مدائح ظافر فى الفاطميين بل فى ابن ظفر نفسه ؛ لأنه على ما يظهر كان يعرض فيها لبعض مبادئ الشيعة كما يصرح بذلك العماد ، فقد بقيت مع ذلك قصيدة له فى مدح ابن أبى حديد قاضى الاسكندرية، وقد رواها العماد لأن ظافرا لم يتشيع فيها ، وقد نظمها ظافر بمناسبة شهر الصيام فقال :

شهر الصيام بك المهنّى ... إذ كان يشبه منك فنا
ما سار حولا كاملا ... إلا ليسرق منك معنى
وينال منك كما ننا ... ل ويستفيد كما استفدنا

فرأى هـلالك من محـل هلاله أعلى وأسنى
بهرت محاسنك الورى فأعادت الفصحاء لكنّا
وإذا مدحناك احتقـ نا ما نقول وإن أجدنا
والفضل أجمع بعد وصـفك فهو غاية ما وجدنا
إن الذى صدح الحما م به ثناؤك حين غنّى
فتهنّ شهرك واستزد بقدومه سعدا ويمنا
فمكانه من عامه كمكانك المحروس منّا

وأنت ترى ظافر فى هذا الشعر لا يستعين بالبناء الفخم فى المديح الذى نعرفه عند شعراء المشرق، وأيضا فانه لا يستعين بالبديع ، إنما هو يستعين بالخيال الشعرى فى ظرف وفى رقة . وهذه هى الروح الحقيقية للمصريين فى العصور الاسلامية ؛ فهم لا يحبون الأبنية الضخمة فى الشعر والفن ، وحين يحاول أحدهم أن ينهض برفع قواعد هذه الأبنية يكون ذلك سببا أولا فى تهمة مصريته والشك فيها.وخير مثل لذلك القاضى الفاضل ؛ فقد كان يعنى بهذه الأبنية وكان أيضا غير مصرى .

ونحن نعرف أن مصر أخذت منذ ولى شؤونها الأيوبيون تخضع للنماذج المشرقية ، وكأن وفود صلاح الدين عليها كان معناه أنها ستخضع لهذه النماذج إذ كان صلاح الدين نفسه نموذجا مشرقيا فى السياسة وقد وفد عليها معه العماد الأصبهانى وكان نموذجا مشرقيا فى الشعر والكتابة ، وكذلك كان القاضى الفاضل مع تركه لبلده فى الشام أثناء العصر الفاطمى وتتلمذه على المصريين ، إلا أنه على ما يظهر لم يكن معجبا بهم ولا بخلفائهم ، ولذلك وجدناه يسعى حتى فى العصر الفاطمى نفسه إلى تقليد المشرق فى كتابته .

هناك إذن خطوط فاصلة فى تاريخ الأدب المصرى بين العصرين الفاطمى والأيوبى ؛ فقد كان المصريون فى العصر الأول أكثر حرية فى التعبير عن أنفسهم ، وكانوا لذلك أقوى شخصية . وهذا ظافر ينظم ، ولكن نظمه يشف عن روحه وعما احتوته من رقة . واستمع إليه يقول متغزلا :

رحلوا ولولا أننى أرجو الاياب قضيت نحبى
والله ما فارقتهم لكننى فارقت قلبى

أو يقول :

يا ساكنى مصر أما من رحمة فيكم لمن ذهب الغرام بلبه
أمن المروءة أن يزور بلادكم مثلى ويرجع معدما من قلبه

أو يقول :

لئن أنكرت مقلتاها دمه فمنه على وجنتيها سمه
وهـا فى أناملها بعضه دعته خضابا لكى توهمه

وهذا شعر سهل عذب يطير عن الفم بخفة ، وخفته جاءت من أن الشاعر فيه يعبر عن نفسه مباشرة لا يلوى بتعبيره لونا من ألوان البديع ولا عقدة من عقد التكلف ؛ فنفسه تسيل على لسانه وفى شعره ، لا يحجبها عنا شئ .

وهذه خاصة مهمة من خصائص شعر ظافر بل الشعر الفاطمى كله ؛ فهو شعر لا يقصد به إلى التصعيب ولا إلى التعقيد بل يقصد به إلى التعبير الواضح عما فى النفس تعبيرا ليس فيه تصنع ولا تكلف ولا محاولة لاستخدام البديع كغاية يقصد لذاته .

السهولة والانطلاق مع النفس هما الخاصة الأولى لشعر ظافر وشعر الفاطميين ، وهى خاصة اقترنت بها عند ظافر خاصة أخرى هى عدم العناية باللغة ، كقوله من قصيدة :

يا رب غانية أضرّ بقولها أنى بلفظة معدم منبوز
فأجبتها ما عازنى نيل الغنى لكن مطالبة الحميد تعوز
ما خاب من هضم التفضل ماله كرما ووافر عرضه محروز

فقد قال «عازنى» والصواب أعوزنى ويعوز ، وقال « محروز » والصواب محرز . وكما نلاحظ هذا اللحن عند ظافر نلاحظه أيضا عند الشعراء المصريين المتأخرين .

ونحن إنما سقنا ذلك لندل على أن الميل إلى السهولة عند المصريين والتعبير الطبيعى جعلهم لا يعنون بألفاظهم عناية المشارقة ، وهى ملاحظة تطّرد فى كتابتهم وخاصة التاريخية منها لا عند الجبرتى المتأخر بل عند غيره

من السابقين . وهى حال نريد أن ندل بها على ميل المصريين إلى إثبات شخصيتهم فى العربية ، فكانوا لا يأبهون بقواعدها فى بعض الأحيان . ولكن هذا لم يكن شأن الكثرة بل كان شأن القلة ، حتى إذا وصلنا إلى العصر العثمانى شاع اللحن وشاع الخروج على اللغة وأصبح هناك ميل عام لاستخدام العامية أو على الأقل لاستخدام بعض ألفاظها .

ولعل فى ذلك ما يدل على أن الأدب فى مصر كان يسعى إلى أن يكون شعبيا . ولكنا نعرف أن كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف ، وهو كتاب متقدم إذ ألف فى العصر الطولونى ، حاول صاحبه أن يستخدم كثيرا من ألفاظ المصريين الدارجة . وربما كان من أهم الأسباب فى هذا الميل الصريح إلى أن يصبح الأدب المصرى أدبا شعبيا أن نجد أبناء الشعب من أصحاب الحرف يشتركون فيه ، فهذا ظافر حداد ، ونجد فى العصر المملوكى شاعرا جزارا وآخر حماميا وثالثا وراقا ورابعا خياطا وخامسا كحالا وسادسا خبازا .

ولكن لا تظن أن هذه الشعبية فى الشعر المصرى ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، أفقدته روعته ؛ فهذا العماد الأصبهانى يقول عن ظافر : «بخطه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وأما كله لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر ؛ حداد لو أنصف لسمى جوهريا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلىء حريا ، أهدى بردى شعره الروى للقلوب الصادية ريا ، فياله ناظما فصيحا مفلقا جريا . »

وهذه شهادة قيمة من زعيم أدباء الشرق فى عصره وأكثرهم تقيدا بالبديع والتصنع فى نماذجه شعرا ونثرا . وهى شهادة ترجع فى الواقع إلى أن ظافرا وغيره ممن يماثلونه حينما ذهبوا هذا المذهب من السهولة فى شعرهم لم يخرجوا به من دوائر الخيال والتصوير ، بل على العكس أتاح لهم ذلك أن يبتكروا فى تصويرهم . وهو ابتكار يشهد بقدرتهم على صنع الصور وإخراجها فى أشكال بديعة من الرؤى الحالمة .

وليس من شك فى أن هذا الجانب عند ظافر وأمثاله هو الذى يمسك بشعرهم أن يخرج إلى الابتذال . فالشاعر إن ترك نفسه على سجيتها ولم يكن عنده حظ من الخيال والوهم خرج شعره ضعيف البنيان يكاد ينقضّ . وقد كان لظافر حظ ممتاز من الخيال الحالم ؛ ولذلك كثرت فى شعره الصور الجميلة التى

تروع العقل والقلب . ونحن نكتفى بصورة واحدة من صوره لندل على هذه المقدرة الممتازة عنده ، وهى صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفاً لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ؛ إذ يقول :

تأمّل بِنْيَةَ الهرمين وانظرْ وبينهما أبو الهول العجيبُ
كعاريتين على رحيل لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النيل تحتهما دموعٌ وصوتُ الريح عندهما نحيبُ

ولا ريب فى أن هذه الأبيات تدل على ريشة فنان حقا ، وهى ريشة تعرف كيف تضم أجزاء المنظر الواسع فى الطبيعة بعضها إلى بعض وتحيلها إلى صورة مركزة دقيقة . فهذان الهرمان ، كما يقول ظافر ، أشبه ما يكونان بعاريتين قد تهيأتا للرحيل بمحبوبين قد وقفا موقف الوداع ووقف منهما أبو الهول موقف الرقيب . وإذا كنت تشك فى هذا المنظر وحقيقته ، فانظر إلى ما يجرى تحت أقدام المحبوبين من دموع النيل التى ما تزال تصب وتجرى منذ القدم .

وأعتقد أن ظافراً لو لم يصنع سوى هذه الصورة الطريفة لكان حريا بالخلود بين شعراء العصر الفاطمى ، وإن فى مثل هذه الصورة عنده لآية على أن المصريين حين تحرروا من ربقة المشرق فى العصر الفاطمى ولم يخضعوا لرسومه الفنية كان ذلك حافزاً لهم أن يأتوا بطرائف جديدة حتى يباهوا أهل الشرق بما لهم من شعر وفن .

لم تجرّ شعبية الشعر المصرى عند ظافر وأمثاله فسادا ولا ضعفا فى الفن ، بل لقد جرّت رقة وسلاسة كما يلاحظ العماد الأصبهانى ، وجرّت أيضاً هذا التجديد والابتكار فى الصور كما جرّت إفصاحاً صريحاً عن بعض خصائص المزاج المصرى من الفكاهة ؛ وسنعرض لذلك عند آخرين من شعراء هذا العصر . ومهما يكن فان ظافراً لم تقعد به شعبيته ولا قعدت به حرفته عن أن يصبح شاعراً ممتازاً من شعراء مصر الفاطمية .

شوقى ضيف